شعرية الأغراض
بين المتنبي وابن هانئ الأندلسي

الباحث حسن أبغور
تحت إشراف: د. عبد الحق بنطوجة
المختبر: الديداكتيك واللغات والوسائط والدراماتورجيا
كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة
المغرب

تقديم:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز أوجه الشعرية وعناصرها لدى الشاعرين: المتنبي وابن هانئ الأندلسي من خلال المقارنة بينهما في تناول الأغراض الشعرية والكشف عن عناصر التشابه بينهما من جهة، وخصوصيتهما الإبداعية حسب التجربة الشعرية لكل منهما ومن جهة أخرى. لاسيما أن شعرهما تميز بالنظم في أغراض مختلفة: المدح والهجاء والفخر... وكذا الإبداع في صياغة المضامين ينم عن تمكنهما من اللغة وحسن سبك ألفاظها مع نزوعهما أحيانا نحو الغريب منها قصد التميز. كما نشير أننا بدراستنا هذه نهدف كذلك إلى إثبات ما إذا كان الشاعر الأندلسي مقلدا أم كان مبدعا ومبتكرا في شعره؛ بغاية تكسير تلك النظرة المشرقية إلى الأدب المغربي عامة، والتي تقضي بوصمه بالتقليد والجمود.

1. نبذة عن حياة الشاعرين:

1.1. أبو الطيب المتنبي:

أبو الطيب المتنبي: هو "أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكندي الكوفي، ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة في محلة تسمى كندة، فنسب إليها، وليس هو من كندة التي هي قبيلة، بل هو جعفى القبيلة –بضم الجيم وسكون العين – وهو جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج . واسمه مالك– بن أدد بن زيد ابن يشجب ابن عريب بن يزيد بن كهلان. نشأ بالكوفة، ويقال: إن أباه كان سقاء بالكوفة، ثم انتقل إلى الشام بولده، ونشأ ولده بالشام، وإلى هذا أشار بعض الشعراء في هجو المتنبي حيث قال:

أي فضل لشاعر يطلب الفض ... ل من الناس بكرة وعشيا

عاش حينا يبيع في الكوفة الم ... اء وحينا يبيع ماء المحيا

قدم الشام في صباه، وجال في أقطاره، وما زال إلى أن ادعى النبوة في بادية السماوة، وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم، فخرج إليه لؤلؤ – أمير حمص نائب الإخشيدية– فأسره وتفرق أصحابه وحبسه طويلا؛ ثم استتابه وأطلقه، ومن ثم سمي المتنبي؛ ثم التحق بالأمير سيف الدولة بن حمدان – سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة– وما زال منقطعا له حتى وقع بينه وبين ابن خالويه –النحوي– كلام في مجلس من مجالس سيف الدولة، فوثب ابن خالويه على المتنبي، فضرب وجهه بمفتاح كان معه، فشجه، وخرج ودمه يسيل على ثيابه، فغضب، وفارق سيف الدولة، وذهب إلى مصر سنة ست وأربعين وثلاثمائة. ومدح كافور الإخشيدي، وكان يقف بين يدي كافور، وفي رجليه خفان، وفي وسطه سيف ومنطقة، ويركب بحاجبين من مماليكه، وهما بالسيوف والمناطق، ولما لم يرضه كافور هجاه وفارقه ليلة عيد النحر سنة خمسين وثلاثمائة، ووجه كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى، فلم يلحقه، وكان كافور وعده بولاية بعض أعماله، فلما رأى تغاليه في شعره وسموه بنفسه، خافه، وعوتب فيه، فقال: يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد، أما يدعي المملكة مع كافور؟ فحسبكم، ولما كان بمصر مرض وكان له صديق يغشاه في علته، فلما أبل انقطع عنه، فكتب إليه: وصلتني –وصلك الله– معتلا وقطعتني مبلا، فإن رأيت أن لا تحبب العلة إلي، ولا تكدر الصحة علي، فعلت إن شاء الله. ولما رحل عن كافور قصد بلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه الديلي، فأجزل جائزته. (وكذلك مدح ابن العميد) ولما رجع من عند عضد الدولة قاصدا بغداد ثم إلى الكوفة في شعبان لثمانية خلون

منه، عرض له فاتك بن الجهل الأسدي في عدة من أصحابه، وكان مع المتنبي أيضا جماعة من أصحابه، فقاتلوهم، فقتل المتنبي وابنه محسد وغلامه مفلح بالقرب من النعمانية في موضع يقال له الصافية، وقيل جبال الصافية — من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول – وذلك يوم الأربعاء لست بقين —وقيل لثلاث بقين، وقيل لليلتين بقيتا– من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، ولما قتل: رثاه أبوه القاسم مظفر بن علي الطبسي بقوله:

لا رعى الله سرب هذا الزمان — إذ دهانا في مثل ذاك اللسان

ما رأى الناس ثان المتنبي — أي ثـان يرى لبكر الزمان

كان من نفسه الكبيرة في جيـ — ـش وفي كبرياء ذي سلطان

هو في شعره نبي ولكن — ظهرت معجزاته في المعاني"[1]

2.1. الحسن بن هانئ الأندلسي:

هو "محمد بن هانئ من محمد بن سعدون الأندلسي الذي «هو أشعر شعراء المغرب على الإطلاق من المتقدمين والمتأخرين ولأجل ذلك يقال له متنبي المغرب » ولد بقرية سكون من قرى مدينة اشبيلية في سنة 350 هـ أو في سنة 326هـ على اختلاف الروايتين في مدة عمره كما سيأتي، وله كنيتان إحداهما أبو القاسم والأخرى أبو الحسن ويقال له ابن هانئ الأندلسي تمييزا بينه وبين الحسن ابن هانئ الحكمي الذي كان في عصر هارون الرشيد واشتهر بأبي نواس، قال غير واحد من المؤرخين أنه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، وقيل بل من ولد أخيه روح بن حاتم، ويزيد بن حاتم هذا هو الذي سيره أبو جعفر المنصور (الثاني من الخلفاء العباسيين) في ستين ألف فارس إلى إفريقية لقتال عمر بن حفص، فوصلها سنة 154 فظفر بعمر المذكور فقتله، فلما مات يزيد في شهر رمضان سنة 170هـ استعمل هارون الرشيد أخاه روحا على إفريقية، وكان روح قبل هذا نائبا على فلسطين.

وينسب ابن هانئ إلى الأزد، فلهذا سمى قصائده أزدية يمنية، وكان أبوه هانئ من قرية من قرى الهدية بإفريقية، وكان أيضا شاعرا أديبا، فانتقل إلى الأندلس، فولد له محمد المذكور بمدينة اشبيلية، ونشأ بها واشتغل وحصل له حظ وافر من الأدب وعمل الشعر ومهر فيه، وكان حافظا لأشعار العرب وأخبارهم، وكان أكثر أدبه بدار العلم في قرطبة، ثم استوطن أبوه إلبيرة، ولأجل ذلك يقال للشاعر الإلبيري أيضا، وكان مع مهارته في الشعر عارفا بعلوم أخرى، لاسيما علم الهيئة كما يظهر من قصيدته الفائية وكان له حذق ثاقب في فك المعمى.

وأول من اتصل به ابن هانئ من أهل الدولة صاحب اشبيلية، فأعزه الملك وأكرمه، وصار عنده ذا مكانة ومنزلة، وأقام معه زمانا، وسبب مفارقته إياه أن أهل اشبيلية نموا على الملك وأساؤوا القول فيه لإقامة الشاعر عنده، لأنه كان معتقدا بإمامة الخلفاء الفاطميين بالمغرب، فاتهمه الناس بمذهب الفلاسفة حتى هموا بقتله، فأشار عليه الملك بالغيبة عن البلدة مدة ينسى فيها خبره، فانفصل عنها وعمره يومئذ نحو سبعة وعشرين عاما، ولا توجد في ديوانه قصيدة في مدح صاحب اشبيلية مع أن الشاعر أقام عنده زمنا، والسبب في ذلك ما ذكر أن شعر ابن هانئ اشتهر في الغربة أي لم يشتهر في وطنه بل اشتهر في المغرب، وذلك بعد خروجه من الأندلس كما هو حال أكثر الفضلاء، لأن الرجل في وطنه لا يكون معروفا، فإذا اغترب عرف فضله وساع صيته، وقديما قالوا «ليس لنبي كرامة في وطنه».

خرج الشاعر إلى عدوة المغرب ولقي القائد جوهرا مولى المنصور بالله، فامتدحه فأعطي مائتي درهم فاستقلها. وسأل عن كريم يمدحه، فقيل له عليك بأحد الجعفرين جعفر بن فلاح أو جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسية، وكان جعفر بن علي بالمسيلة وهي من مدينة الزاب واليا عليها مع أخيه يحي الذي كان معاونا له، حتى قيل كان وليها، فقصدهما ومدحهما بقصائد معدودة متبثة في ديوانه، فبالغا في إكرامه والإحسان إليه، وسارت أشعاره فيهما، فلم يزل عندهما في أرغد عيش وأعز جانب إلى أن نما خبره إلى المعز

لدين الله، فطلبه منهما، فوجهاه إلى القيروان في جملة طرف وتحف بعثا بها إليه، كان أبو القاسم أفضلها عنده، فأقام عند المعز بالقيروان إلى أن قتل.

وفي سبب وفاته أقوال قال بعضهم بينما كان يسير متوجها إلى مصر وهو في صحبة المعز إذ وجد مقتولا بجانب البحر، وقال ابن خلكان «لما توجه المعز إلى الديار المصرية شيعه ابن هانئ ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به، فتجهز وتبعه، ولما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها، فأقام عنده في مجلس الأنس، فيقال أنهم عربدوا عليه فقتلوه، وقال خرج من تلك الدار وهو سكران، فنام في الطريق وأصبح ميتا، ولم يعرف سبب موته، وقيل انه وجد في سانية من سواني برقة مخنوقا بتكة سراويله، وكان ذلك بكرة يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رجب سنة 362، وعمره ست وثلاثون سنة، وقيل اثنتان وأربعون، رحمه الله تعالى، وما زلت أتطلب تاريخ وفاته من التواريخ والمظان التي يطلب منها فلا أجده، وسألت عنه خلقا كثيرا من هذا مشاييخ الشأن فلم أجده، حتى ظفرت به في كتاب لطيف لأبي على الحسن بن رشيق القيرواني فألفيته كما هو مذكور هاهنا.

أقول والأغلب أن قول ابن خلكان الأخير وهو قتله مخنوقا بتكة سراويله في سانية من سواني برقة هو الصواب، وهو الذي اتفق عليه ابن الأثير وأبو الفدى وابن خلدون أيضا، ويؤيده ما ذكرت سابقا أن بني أمية كانوا من أعدائه، وأنهم بذلوا ما في وسعهم واستفرغوا مجهودهم في منعهم إياه من الوصول إلى المعز، فلا يبعد أن يكون بعضهم قد استعمل الحيلة في قتله بإنزاله معه ضيفا وفتكه به.

وأعلم أن المؤرخين قد اتفقوا على تاريخ قتله وهو سنة 362هـ إلا لسان الدين بن الخطيب وابن الأبار، فإنهما قالا «وتوفي سنة 321هـ»، ولكن التاريخ الأول هو الذي يؤيد الواقع صحته".[2]

تكشف سيرة الشاعرين عن وجود تقارب زمني بين حياتهما، وعن تشابه في ظروف عيشهما. فكيف سينعكس هذا التقارب والتشابه على تجربتي الشاعرين الإبداعية؟.

2. مظاهر شعرية الأغراض:

يمثل أبو الطيب المتنبي والحسن ابن هانئ الأندلسي أبرز رواد الاتجاه المحافظ الجديد في الشعر خلال القرن الرابع الهجري. هذا الاتجاه الذي رام فيه أصحابه العودة إلى الأسلوب الشعري القديم والاهتمام بالموضوعات التقليدية مع ربطها بالحاضر، متمسكين في ذلك بوحدة الوزن القافية وجزالة اللفظ، ومستفيدين من رقي العقل العربي بما بلغته الثقافة العربية والإسلامية من نهضة واسعة في مجتمع توفرت له أسباب الحضارة. فيعتبر هذا الاتجاه محافظا في نهج القصيدة ولغتها وسياقها وروحها وأخلاقها ومجددا في معاني الشعر وصوره وأسلوبه وجمالياته.[3] لذلك نجد شاعرينا قد شاركا من سبقهما في ولوج الأبواب الشعرية المعهودة من مدح ورثاء وغزل وفخر ووصف وهجاء وغيرها من الأغراض، وذلك بكل ما أوتيا من عبقرية واتساع مدارك وسمو إيحاء أضفى علي قريضهما لمحة شعرية قل نظيرها على مر العصور. تلك اللمحة التي جعلت أعمالهما تترك بصمات في تاريخ الآداب استأثرت باهتمام الباحثين والدارسين في كل وقت وحين ليكتب لها المجد والخلود.

سنحاول استقصاء أهم أوجه التشابه والاختلاف بين شعر المتنبي وشعر ابن هانئ علي مستوى المضمون محاولين كذلك إبراز أهم السمات الشعرية من هذه الناحية في قريضهما.

1.2. المديح:

لقد عد المتنبي وابن هانئ أكثر شعراء القرن الرابع الهجري تعاطيا لغرض المديح، إذ نجد هذا الغرض يشغل القسم الأكبر من ديوانيهما. ولا عجب، فقد اتخذ جل شعراء ذلك العصر. هذا الغرض وسيلة للعيش وبلوغ المجد.[4] وما دام المجد غاية شاعرينا كغيرهم من شعراء عصرهم، فهما كذلك سعيا وناضلا في الحياة من أجل تحقيقه متوسلين في ذلك نظم القريض كأداة لربح المال والعطايا التي هي سبب في وصول مبتغاهما. فنجد المتنبي يقول:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا قل مجده.[5]

ويقول في موضع آخر:

وأشرفهم من كان أشرف همة وأكبرهم إقداما على كل معظم[6]

ومثله يقول ابن هانئ:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

وبالهمة العليا يرقى إلى العلى فمن كان أرقى همة كان أظهرا[7].

هذا الميل والنزوع نحو المجد جعل الشاعرين يتصلان بساسة عصرهما ويطرقان أبواب قصور الولاة والعمال والسلاطين طمعا في النوال والعطايا ولذلك كان أجمل وأمتع ما قالاه في شعرهما ما كان منه في المديح.

فالمتنبي عرف في عصر بكثرة مدحه لعلية قومه إذ مدح نحو من خمسين شخص وأكثرهم من ذوي الرتب العالية نذكر منهم «سيف الدولة الحمداني» أمير حلب وقد خصه المتنبي بنحو ثلث ديوانه[8].

وتجدر الإشارة إلى أن المتنبي أجاد في المدح لدرجة أن لا أحد من معاصريه أو متقدميه أو متأخريه استطاع أن يبلغ فيه ما بلغ إذا استثنينا ابن هانئ الأندلسي الذي جاء شعره على شاكلته.

غير أننا نجد هذا الشاعر في أغلب حالاته يميل نحو المبالغة المفرطة في مديحه، التي تفضي أحيانا إلى الاصطدام بالعقل أو الذوق أو الدين. فتلقاه يجنح في مديحه إلى المبالغة والإسراف على نفسه في الارتقاء بممدوحه عن البشر إلى مرتبة الألوهية تارة، وإلى مرتبة الأنبياء والصالحين تارة أخرى حتى ليقول:

فما ترزق الأقدار من أنت حارم ولا تحرم الأقدار من أنت رازق

ولا تفتق الأيام ما أنت راتق ولا ترتق الأيام ما أنت فاتق[9]

فيساوي هنا بين الله عز وجل وممدوحه في صفة الإرادة في منح الرزق لعباده أو عدمها. والحق أن هذه صفة يختص بها الله سبحانه وتعالى. إذ هو الوحيد الذي إذا أراد أن يرزق عبداً من عباده فلن يحرمه أحد، وإذا أراد أن يحرم عبدا من عباده فلا رازق له سواه.

وقد التمس عبد الرحمن البرقوقي العذر لأبي الطيب في هذا الغلو حيث يشرح هذا البيت ويشير إلى أن المتنبي بقوله هذا أن الأقدار والأيام لا تخالفه فيما يصنع من حرمان ورزق ورتق وفتق، بل هي موافقه له مواتية[10].

ومن غلوه كذلك تشبيهه ممدوحيه بالأنبياء، إذ يقول:

من يزره يزر سليمان في المل ك جلالا ويوسف في الجمال[11]

ويقول أيضا:

لو كان علمك في الإله مقسما في الناس ما بعث الإله رسولا

أو كان لفظك فيهم ما أنزل ال قرآن والتوراة والإنجيلا[12]

ونجد شوقي ضيف يعلق على هذه الأبيات ويقول: "فإن الإنسان يحس كأن المعاني أعيته فذهب إلى استصغار أمور الأنبياء وكان يستطيع أن يبلغ من وصف ممدوحه ما يريد، دون أن يكلف نفسه هذا العناء من المقارنة والمفاضلة بينه وبين الأنبياء"[13]. إلا أن ضيف يعلل هذه المغالاة بالتجاء أبي الطيب لأساليب المتصوفة وما سبقه من التجائه لأساليب المتشيعة التي بعثت فيه حالا من الغلو والمبالغة في مدح أصحابه. حتى ليخيل إلى الإنسان في كثير من الأحيان أنه يقرأ مدحا لإمام من الأئمة المتشيعة أو المتصوفة[14]. ويضيف أن سبب هذه المغالاة ترجع كذلك إلى ما شاع في بيئة الأدباء والنقاد من الدعوة للمبالغة والغلو كما نرى عند قدامة[15].

وفي مثل مغالاة المتنبي في تأليه ممدوحه نجد ابن هانئ يقول مادحا المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار[16].

يصل ابن هانئ من خلال هذا البيت بممدوحه، هو كذلك، إلى درجة التأليه. وقد أنكر عليه عدد من النقاد هذا الغلو رغم إشادتهم بشعره كابن خلكان الذي يقول في تعليقه على شعره: "ولولا ما فيه من الغلو والإفراط المفضي إلى الكفر لكان ديوانه من أحسن الدواوين"[17].

إلا أن الدكتور زاهد قد التمس له عذرا في هذا الغلو مثله في ذلك مثل المتنبي، ويبرر قول ابن هانئ في هذا الموضع بأن التوحيد عند الاسمعيليين – وهي الفرقة الشيعية التي ينتمي إليها ابن هانئ في مذهبه الشيعي–، يختلف عن توحيد الفرق الأخرى فهم يروون عن الإمام الباقر محمد بن علي زين العابدين أنه قال: «إن الله عالم على معنى أن القدرة قائمة بذاته» وجميع النعوت والصفات واقعة على المبدع الأول وهو الأمر والكلمة؛ والمبدع منزه عن جميعها لا يليق به منها شيء: ولما كان الإمام قائما مقام الأمر والكلمة في هذا العالم فجميع صفات الباري واقعة عليه فلا عجب أن أطلق الشاعر «الواحد القهار» على المعز فإنه في ذلك صادق لأنه قال ما قال حسب اعتقاده[18].

ومن غلو ابن هانئ كذلك في المدح قوله:

إمام رأيت الدين مرتبطا به فطاعته فوز وعصيانه خسر

أرى مدحه كالمدح لله إنه قنوت وتسبيح يحد به الوزر[19]

يعلق أحمد هيكل على هذين البيتين قائلا: وليس من شك أن الحدة تكون عمقا في الفكرة وصدقاً في التجربة وحرارة في الإحساس، أما حين تكون مبالغة يرفضها الذوق أو العقل أو الدين فإنها تأتي سخافة ساقطة[20].

ومع هذه المغالاة في المدح فإنه لا يمكن أن ننكر سمة الشعرية على شعر المتنبي أو ابن هانئ ذلك أنهما يوصلان الفكرة بشكل فيه من حسن التأليف ودقة البيان ما يجعل القارئ يقف مندهشا أمام قريضهما.

على هذا النحو نجد الشاعرين قد تميزا بحدة شعرية، حيث اتجها في مديحهما إلى المبالغة والاستحالة في الشعر القديم. وقد تأتى لهما ذلك بفضل قدرتهما الشعرية وحدة خاطرهما وبراعة قولهما.

2.2. الهجـاء:

قبل أن نغوص في الحديث عن فن الهجاء لدى الشاعرين، نقر أن غرضهما هذا كان في غاية الإتقان؛ فهما لا يقلان عن سواهما من الشعراء كالأعشى وبشار بن برد من حيث قوة أهاجيهما وعنف معانيها وجنوحها إلى الفحش المقذع والطعن الجارح البليغ، بحيث يصعب في بعض الأحيان إذاعتها بين الناس وذلك على الرغم من ندرة هذا الفن في ديوانهما، إذ أن أنفسهما كانت مشغولة بجو من العظمة بعيدة عن مثل هذه الأغراض التي ربما لا طائل تحتها، فما كانت أهاجيهما إلا انتقاما لكرامة أو ردا لاعتبار.

يقول المتنبي في هجاء كافور الإخشيدي:

وتعجبني رجلاك في النعل إنني رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا

فإن كنت لا خير أفدت فإنني أفدت بلحظ مشرفيك الملاهيا

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك الحداد البواكيا[21]

ويقول في هجاء ظبة بن يزيد العتبي:

ما أنصف القوم ظبة وأمه الطرطبه

وما عليك من القتل إنما هو ضربه
وما عليك من الغدر إنما هو سببه
وما يشق على الكلب أن يكون ابن كلبه
يا أطيب الناس نفسا وألين الناس ركبه
وأخبث الناس أصلا في أخبث الأرض تربه
وإن عرفت مرادي تكشفت عنك كربه
وإن جهلت مرادي فإنه بك أشبه[22]

وهذه القصيدة طويلة اخترنا منها الأبيات الألطف والأقل بداءة إذ القصيدة تتضمن بعض الألفاظ التي ينبو عنها السمع. يقول عبد الرحمن البرقوقي في حاشيته على القصيدة:" ولولا أن يقال إننا تصرفنا في الديوان وأن هذا الديوان أدركه الخداج – إذ حذفنا منه بعض شعر المتنبي فيسيء الناس بنا الظن– لما أثبتنا هذه الأبيات التي ينبو بها السمع[23].

ونجد المتنبي يصيح في وجه العرب بكل قوته؛ يوقظهم من سباتهم، ويصور لهم حالهم. ويستحثهم على إرجاع سالف مجدهم، وحين يضيق بهم، يهجوهم شر الهجاء.

فؤاد ما تسلية المدام وعمر مثل ما تهب اللئام
ودهر ناسه صغار وإن كانت لهم جثثٌ ضخام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام[24]

ويعلق حنا الفاخوري على غرض الهجاء عند المتنبي قائلا: "إن مرارة السخط قد طغت عموما، في هجاء المتنبي، على الفكاهة الساخرة، فانحدرت به أحيانا إلى دركة بعيدة من الأقذع والفحش في الألفاظ والمعاني"[25].

وفي مثل قوة معاني المتنبي في الهجاء يقول ابن هانئ في هجاء الوهراني كاتب الأمير جعفر:

إن ذل العزيز أفظع مرأى بين عينيه من لقاء الحتوف
إن أيام دهرنا سخفات فهي أعوان كل وغد سخيف
زمن أنت يا أبا الجعر فيه ليس من تالد ولا من طريف
إن دهرا سموت فيه علوا لوضيع الخطوب وغد الصروف[26]

في هذه الأبيات التي انتقينا من القصيدة التاسعة والعشرين من ديوان ابن هانئ نجد فيها هذا الأخير يهجو الوهراني شر هجاء بسبب الخصومة التي كانت بينهما إلا أن شاعرنا سرعان ما ترفع عن هذا الهجاء لأن تلك الخصومات لا تضيره في شيء نظرا لقرابته الدموية مع الأمير.

ويقول كذلك في هجاء قومه:

ألا إن حقا دعوتم إليه هو الحق ليس به من خفا
لآدم من سركم موضع به استوجب العفو لما عصى
فيومكم مثل دهر الملوك وطفلكم مثل كهل الورى
عجبت لقوم أضلوا السبيل وقد بين الله سبل الهدى

ألا أيها المعشر النائمون ... أجدكم لم تقضوا الكـرى
أفيقوا فما هي إلا اثنتان ... إما الرشاد وإما العمى
وما خفي الرشد لكنما ... أضل الحلوم اتباع الهوى[27]

بدراستنا لغرض الهجاء عند الشاعرين نخلص إلى أن كليهما كانا مترفعين عن هذا الغرض رغم إجادتهما فيه.

3.2. الرثاء:

يعتبر هذا الغرض من الموضوعات التي طرقها كل من المتنبي وابن هانئ، وقالا فيه أشعار قوية تفيض حرارة وتبعث على الحزن والأسى، وتدعو إلى الرويّة والتفكير؛ فأبو الطيب المتنبي تناول الرثاء في عدة قصائد. وأهم مراثيه كانت في جدته وأم سيف الدولة وابنه وأخته الصغرى والكبرى. يقول المتنبي في رثاء جدته:

لك الله من مفجوعة بحبيبها ... قتيلة شوق غير ملحقها وصما
وأحن إلى الكأس التي شربت بها ... وأهوى لمثواها التراب وما ضما
بكيت عليها خيفة في حياتها ... وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما
حرام على قلبي السرور فإنني ... أعد الذي ماتت به بعدها سما[28]

والمتنبي في هذه الأبيات يشتاق إلى ما يذكره بجدته حتى أنه يشتاق إلى اللحاق بها في التراب والقبر الذي ضمها.

ويقول في رثاء أخت سيف الدولة:

قاسمتك المنون شخصين جورا ... جعل القسم نفسه فيه عـدلا
فإذا قست ما أخذ بمـا أغ ... درن سرّى عن الفؤاد وسلّى
وتيقنت أن حظك أوفـى ... وتبينت أن جدك أعلـى
خطبة للحمام ليس لها ر ... دٌّ وان كانت المسماة ثكـلا
وإذا لم تجد في الناس كفوا ... ذات خذر أرادت الموت بعلا[29]

وفي هذه الأبيات يجعل المتنبي مرثيته تتعالى أن تكون زوجة لأحد لعدم وجود رجل كفء من أبناء جنسها لهذا اختارت الموت بعلا.

وقد برع ابن هانئ هو كذلك في رثاء والدة جعفر بن علي يقول:

صدق الفناء وكذب العمر ... وجل العضات وبالغ النذر
إنا وفي أمال أنفسنـا ... طول وفي أعمارنا قصر
أعقيلة الملك المشيعها ... هذا الثناء وهذه الزمر
شهد الغمام وإن سقاك حيا ... أن الغمام إليك مفتقـر
كم من يد لك غير واحدة ... لا الدمع يكفرها ولا المطر
ولقد نزلت ببنية علمت ... ما قد طوته فهي تفتخر[30]

هذه كلها أبيات تدل على مدى براعة ابن هانئ كذلك في هذا الغرض حيث يجعل مرثيته في مرتبة عالية ويجعل فقدانها خسارة للعالمين.

قال يرثي ولداً لإبراهيم بن جعفر بن علي:

وهب الدهر نفيسا فاسترد ... ربما جاء لئيم فحسـد
إنما أعطى فواقي ناقـة ... بيد شيئا تلقاه بيـد

خاب من يرجو زمانا دائما تعرف البأساء منه والنكد
لا رجاء في خلود كلنا وراء الماء الذي كان ورد
جاورت روضا ثراه ديمة تحمل اللؤلؤ رطبا لا البرد
إن في الجوسق قبرا تربه من دم الباكين إضريح جسد[31]

على هذا النحو يتبين لنا أن كلا الشاعرين كان لهما باع طويل في فن الرثاء إذ يستطيعان أن يصورا فاجعة الموت والفقدان بشكل يبعث الحزن والأسى في القلوب، حتى يخيل للمتلقي أن الفقيد أو المرثي أحد من أقربائه وإن لم يكن كذلك.

4.2. الغزل:

إذا كان الشاعران قد فجرا طاقتيهما في المديح والهجاء والرثاء. فقد برعا كذلك في مجال الغزل، وأنتجا فيه صورا بليغة حيث نجد هذا الغرض يحتل حيزا عريضا من مقدمات قصائدهما. وقد ابتكر الشاعران فيه من المعاني في نعت الحبيبة ما لم يسبق إليه سابق أو يلحق بهما فيه لاحق.

فكلاهما يرسم صورة لمعوشقته، فيصفها في دقة متناهية لا يستطيع المرء أن يحجب إعجابه حيالها. ومن روائع المتنبي في هذا النمط من الغزل قوله في امرأة بارعة الجمال:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق
وغضبى من الإدلال سكرى من الصبى شفعت لها من شبابي بريق
وأشنب معسول الثنيات واضح سرت فمي عنه فقبل مرفقي
وأجياد غزلان كجيدك زرنني فلم أتبين عاطلا من مطوق[32]

ويقول أيضا:

أبلى الهوى أسفا يوم النوى بدني وفرق الهجر بين الجفن والوسن
روح تردد في مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

في هذه الأبيات إغراق في الخيال وإبداع في وصف النحول، ربما لم يسبق إليه الشعراء ممن تقدمه ولا من تأخر عنه.

ومن إبداع ابن هانئ في هذا اللون متغزلا في جنان معشوقته:

شرقت بماء الورد بلل جيبها فسرت ترقرق درة المنضوحا
أنفاس طيب بتنا في درعي وقد بات الخيال وراءهن طليحا[33]

فالشاعر هنا يعبر عن التذاذه بتلك النسمات الطيبة التي سرت إليه في الليل من محبوبته مكتفيا بنفحاتها لعدم استطاعته معانقة معشوقته مباشرة لما بينهما من طول البين والهجران.

ويقول في مطلع قصيدة أخرى:

امسحوا عن ناظري كحل السهاد وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
أو خذوا مني ما أبقيتم لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محبا من هوى أو تفكون أسيرا من صفاد

فعلى الأيام من بعدكم ما على الثكلاء من لبس الحداد[34]

من خلال هذه الأبيات نتبين مدى ولع الشاعرين بجمال حبيبتيهما. فكل تلك الأبيات ما هي إلا شواهد على افتتانهما بها وإقبالهما عليها في لهفة لا متناهية، وقد عبرا عن ذلك بإحساس فياض وأفصحا عما بداخلهما من خوالج بطريقة بارعة. فجاء أغلب غزلهما، دون أدنى شك، متسما بالرقة والعذوبة وبراعة المعاني التي يفتق الشاعران أكمامها؛ ليرقيا بذلك مع بداوة غزلهما التقليدي إلى إنتاج معاني في منتهى الجدة والسحر.

5.2. الفخر:

إن المتفحص لديواني الشاعرين المتنبي وابن هانئ، ليجد الفخر مبثوثا في جل قصائدهما وإن لم يكن لهما قصائد فخرية مستقلة. فتعاظمهما في شعرهما، ونزوعهما نحو المجد والعزة جعلهما لا يفوتان الفرصة كلما سمح لهما المقام للافتخار بنفسهما وتعظيمها وجعلها فوق الجميع.

يقول المتنبي مفتخرا بنفسه:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
إن أكن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي وسهام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها اللّ ـه غريب كصالح في ثمود[35]

ويقول مفتخرا بشعره:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملئ جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم[36]

ويقول أيضا:

وما الدهر إلا من رواة قلائدي إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغني مغردا
أجزني إن أنشدت شعرا فإنما بشعري أتاك المادحون مرددا[37]

يقول حنا الفاخوري معلقا على غرض الفخر عند المتنبي: "فخر المتنبي صريح جريء في كبريائه الجموح. بل مغال فيها إلى حد مفرط، وكثيرا ما يبطن كبريائه بازدراء شنيع يشمل الناس والكون جميعا"[38].

وهذا الافتخار بالنفس ذاته والاعتداد بها نجده عند ابن هانئ الأندلسي حين يقول:

ومستكبر لم يشعر الذل نفسه أبيّ بأبكار المهاول فاتك
ولو علقته من أمية أحبل لجب سنام من بني الشعر تامك
ولما التفت أسيافها ورماحها شراعا وقد سدت علي المسالك
أجزت عليها عابرا وتركتها كأن المنايا تحت جنبي أراتك[39]

ويقول في موضع آخر:

أرى شعراء الملك تنحت جانبي وتنبو عن الليث المخاض الأوارك

تخب إلى ميدان سبقي بطاؤها وتلك الظنون الكاذبات الأوافك

رأتني حماما فاقشعرت جلودها وإني زعيم أن تلين العرائك[40]

ويتحدث في قصيدة أخرى عن عزة نفسه وعزمه القوى في نيل المعالي فيقول:

لقيت نعماء الخطوب وبؤسها وسبكت سبك الجوهر المتخلص

فإذا سعيت إلى العلى لم أثنه وإذا اشتريت الحمد لم استرخص

شارفت أعنان السماء بهمتي ووطئت بهرام النجوم بأخمصي[41]

يتبين لنا من خلال هذه الآبيات ما مدى افتخار الشاعر بنفسه، فهو يسمو بها فوق الجميع ويطاول بها النجوم في السماء، ومعاني الأبيات واضحة صريحة تحيل على ذلك.

3. مظاهر تميز شعر أبي الطيب المتنبي

كثيرون هم الشعراء الفحول في المتن الشعري العربي منذ أن هلهل المهلهل، لكن لا أحد بلغ ما بلغه المتنبي من شعر وذكر وشهرة وخلود، إسمه يعلوا أسماء كل الأعلام وتنيخ هامته على سواه من الشعراء، من تقدم منهم ومن تأخر، فقد أثار هذا الشاعر العباسي الكبير، جدلا كبيرا في صفوف الباحثين والنقاد على حد سواء، إذ خلف تراثا شعريا ضخما، مس جميع الجوانب الشعرية من مدح ورثاء ووصف وفخر...

وقد شهد له بالفضل الكبير أئمة اللغة والأدب، عربا ومستشرقين، فهذا بلاشير يقول في حقه: "أثبت المتنبي، في سن مبكرة، أنه أكثر من عالم، فقد ظهرت موهبة الشعر عنده، قبل الأوان"[42].

فالرجل كان مثقفا ثقافة واضحة بكل ما عرف لعصره من معارف، من ذلك قول صاحب معاهد التنصيص فيه: كان المتنبي من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها، ولا يسأل عن شيء إلا ويستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر[43]. ولذلك يخيل للإنسان أن المتنبي لم يكن هناك تعبير غريب أو أسلوب غير مألوف في بيئة مثقفة إلا وتكلفه في شعره، ومن ذلك ما لاحظه صاحب الصناعتين من أنه يجمع الدنيا على دنا صنيع أصحاب الأدوار والتناسخ[44].

وكلها أدلة واضحة عن براعته في القول، وتمكنه من ملكة الشعر، ولجم أبواب الشعر كلها، إلا أن لشخصيته سحرها الخاص ترفعه عن غيره من الشعراء ومن أظهر مزاياه نجد:

1.3. البعد الفلسفي عند الشاعر:

لم يكن المتنبي فيلسوفا بما تحمله الكلمة من معنى، فليست له آراء شاملة في أصل العالم أو الحياة أو الأخلاق، وإنما له خطرات في الحياة والأحياء، فقد نقل الكثير من الأفكار والعبارات الفلسفية إلى الشعر، اجتلبها الشاعر ليدل على ثقافته وليحقق الكثير ما يريد من الجديد في صناعته، حيث تتجلى هذه النزعة الفلسفية في طريقة طرقه لمختلف الأغراض الشعرية. فالمتأمل فيما تركه الشاعر من قصائد، يدرك بشكل بارز بأن الشعر عنده كان يعتمد على العقل المتفلسف والصياغة الفلسفية، ومن ذلك قوله:

تناهى من سكون الحسن في حركاتها وليس لراء وجهها لم يمت عذر[45]

فالشاعر هنا يطرز شعره بأمثال الفلسفة اليونانية، ويستعير ألفاظها واصطلاحاتها، كما في البيت السابق، الذي استعار فيه الحركة والسكون. ونراه يقول في موضع آخر:

وترى الفتوة والمروة والأبـ ـوة في كل مليحة ضراتها

هن الثلاث المانعاتي لذتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها[46]

وقد علق العكبري على هذين البيتين، مشيرا بذلك إلى قول المتفلسفة «إن النفوس تركت الشهوات البهيمية طبعا لا خوفا»[47].

فقد عمل الشاعر المتنبي على توسيع هامش الجانب الفلسفي في الشعر العربي واستطاع أن يودع فيه جانبا من سر تفوقه وسر تصنعه، إذ كان يحتال احتيالا شديدا على شارات التعبير الفلسفي وسماته يدخلها في نماذجه، كما نرى في قوله:

أسفي على أسفي الذي دلهني عن علمه فيه علي خفاء[48]

فالشاعر يأسف على أسفه أسفا غير مفهوم، فالأسف يركب أسفا مثله وما يزال هذا القانون من التوليد يلعب في فكر المتنبي وشعره حتى نراه يقول:

نقم على نقم الزمان يصبها نعم على النعم التي لا تجحد[49]

فالنقم على نوعين والنعم على نوعين أيضا، وكل شيء يمكن أن يستخرج منه شيئا آخر، ويتحد معه، فيقوم دونه، أو يصب عليه، أو يركبه ركوبا غريبا[50].

وعلى هذا النمط نرى عبارات المتنبي تنغمس في أصباغ فلسفية تدل على أن الشاعر استوعب الفلسفة اليونانية، ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن مياه التفكير اليوناني، صبت في النهر العربي في شخصية المتنبي بشكل واضح.

كما أن الشاعر انشغل أكثر بنفسه وتجاربه وإلهامه، فقد صرف همه إلى الإنسان في كليته (حياته، أخلاقه، عواطفه، علاقته بالجماعة...)، لا دراسة الفلسفة، أو في التأملات في ما وراء الزمان والمكان. فمن ذلك مثلا قوله:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجد والفهما[51]

فالشاعر في هذا البيت يناول قيمة الزمان بطريقة فلسفية بارعة فعده عدوا الأحرار وكرام النفوس، فهو الذي يقسم الحظوظ والمواهب على الناس ولكنه مطبوع على الجور، يمنع التقاء العقل والحظ، وينتهك أبدا حرمة العقل فلا نيله ما يحق له من التكريم والسلطان[52].

ومن نظراته الفلسفية العميقة، تلك الصورة التي يرسمها عن الموت، كما في قوله:

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه

فهذه الأرواح من حبوه وهذه الأجسام من تربه[53]

فالشاعر هنا يجعل الموت قدرا محتوما، لا ينبغي الخوف والجزع منه، فكما أن الأجسام خلقت من تراب، فحتما ما سيأتي يوم تستعيد فيه الأرض ما وهبته ذات مرة، وكما أن الحياة من صنع الزمان، فلا بد يوما أن يستردها ويطالب بها.

ومن هنا تكون نظرته للموت قائمة على معادلة فلسفية تقوم على الأخذ والعطاء.

2.3. النقد الاجتماعي في شعر المتنبي:

نظر المتنبي إلى الحياة والمجتمع نظرة فلسفية ملؤها السخط والعداوة بين بني البشر، فهي في معتقده، مسرح من مسارح تنازع البقاء للأقوى، بل أكثر من ذلك جعل منها ساحة للحرب والقتال. وميدانا للجهاد لا يفتأ فيه الناس متجادلين من غير رحمة ولا هوادة، فلا يثبت غير القوي ولا يفلح غير الشجاع الذي لا يهاب.

يقول:

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصا عليها مستهان بها صبا

فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا[54]

وقوله في موضع آخر:

إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا

من أطاق التماس شيء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا[55]

فالحياة كما يتصورها المتنبي قائمة على العداوة الشرسة وانتهاز الفرص، ونيل القوي من الضعيف، دون أي رحمة أو رأفة.

ونلمس كذلك من خلال شعره تمردا على الأوضاع الاجتماعية وشعورا دائما بالمرارة وسوء الحظ وشكوى الزمان وسخط عنيف على الناس والمجتمع. ويقول في هذا الصدد:

أذم إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وأكرمهم كلب وأبصرهم عم وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد[56]

كما أن طغيان الأنا والاعتزاز بالنفس عند المتنبي حتى يجعلها فوق البشر جعله ينظر بازدراء إلى مكونات المجتمع ويعتبر نفسه في درجة عليا لا يرقى إليها أحد سواه وهناك من النقاد من يرجع تسميته بالمتنبي لهذا السبب حيث أنه قال:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

مفرشي صهوة الحصان ولكـ ن قميصي مسرودة من حديد

لأمة فاضة أضاة دلاص أحكمت نسجها يدا داود

أين فضلي إذا قنعت من الدهـ ر بعيش معجل التنكيد

أبدا أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود

ولعلي مؤمل بعض ما أبلـ غ باللطف من عزيز حميد

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدا وغيظ الحسود

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود[57]

3.3. شعر الحكمة عند المتنبي:

لقد أجاد المتنبي في طرق جميع الأغراض الشعرية التي كانت معروفة في عصره من مدح وهجاء وفخر ورثاء، لكنه برع براعة لا مثيل لها في شعر الحكمة والأمثال حيث لا أحد بلغ ما بلغه في هذا المجال، حتى غدت أبياته تجري مجرى الأمثال لما فيها من قوة المعنى والتأثير حتى أصبحت دليلا على مدى صحة القول من عدمه. فرددها الناس بعده جيلا بعد جيل. وإليها يعود شطر كبير من شهرته ومكانته الأدبية وقد جاءت الحكمة مبثوثة في كل قصائده ونمثل لها بما يلي: قوله:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر صغير كطعم الموت في أمر عظيم[58]

وقوله:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فاطلب العز في لظى وذر الذ ل ولو كان في جنان الخلود[59]

فقد جاءت أبيات الحكمة عند هذا الرجل متحدثة ومعبرة أصدق تعبير عن أدق الطبائع البشرية، ومصورة آلام الناس وأحلامهم ومشاغلهم ومشاعر قلوبهم في قالب فني منقطع النظير.

4. مظاهر تميز شعر ابن هانئ:

لقد كانت لابن هانئ لوحات فنية رائعة تجعله ذا شخصية متفردة، ومن بين هذه السمات والخصائص التي أجاد الشاعر فيها وشكلت مكامن التميز في شعره نجد:

1.4 المذهبية الشيعية:

نظم ابن هانئ معظم قصائده في المعز لدين الله الفاطمي، فقد كان الشاعر متحمسا للعقيدة الفاطمية، فكان شاعر الخليفة بامتياز، والشاعر السياسي لدولة الخلافة، ينطق بمجدها ويتحدث عن عظمتها الروحية والسياسية والحربية. وهذه النزعة المذهبية الشيعية جعلته لا يؤمن بالفن فقط. وإنما يستخدمه في تدعيم مذهب يميل إليه ويدعو له، فقد كان لسان هذه العقيدة والناطق باسمها، وداعيتها ذا الصوت الجهير، ولعل هذا ما جعل شعره في هذا المجال "مرجعا هاما لمن يبحثون في العقيدة الفاطمية وكل من كان يؤمن به دعاتهم من صفات علوية في الإمام"[60] والأمثلة كثيرة ومتعددة، منها على سبيل المثال قوله:

مؤيد باختيار الله يصحبه — وليس فيما أراه الله من خلل

وقد شهدت له بالمعجزات كما — شهدت لله بالتوحيد والأزل[61]

وكقوله أيضا:

هو الوارث الأرض عن والدين — أب مصطفى وأب مرتضى[62]

إن إيمان الشاعر العميق والقوي بمذهبه السياسي، جعله ينظم في مدحه قصائد خالدة، فقد وقف نفسه ووقته وشاعريته للتعبير عنها، مما أهله مكانة في دولة المعز لم يصلها سواه من الشعراء. ومكنته قوة هذه العقيدة وحرارة الإيمان بمبادئها أن شكل شعره أنشودة في كل فم وأغنية في كل لسان.

2.4. البساطة والوضوح:

لقد كانت هذه الظاهرة منتشرة في شعره بكثرة، مما كان يؤدي به في بعض الأحيان إلى النزول عن مستواه الشعري، لاسيما فيما يتعلق بمدح المعز لدين الله، فقد كان همه الأول والأخير هو إشاعة ونشر مبادئ عقيدة هؤلاء، فسعى إلى تبسيط المعنى والابتعاد عن التعقيد والغموض، قصد إيصال المعنى بيسر وسهولة إلى المتلقين والأنصار، ويتلقاها الذهن بأدنى تأمل.

ومن الأبيات التي حفل فيها ابن هانئ بالمعنى دون اللفظ قوله:

هذا الشفيع لأمة يأتي بها — وجدوده بجدودها شفعاء

هذا أمين الله بين عباده — وبلاده إن عدت الأمناء

هذا الذي عطفت عليه مكة — وشعابها والركن والبطحاء[63]

فهذه الأبيات الثلاثة جاءت مرسلة لا تستعصي على الأفهام ولا تحتاج إلى تأويل ذهني، فقد صرفه المكوث وراء المعنى كثيرا لأن يضحي بجمالية اللفظ لإبراز نزوعه الديني والروحي والدعوة إليه.

ومع ذلك، فإننا لا نعدم وجود بعض القصائد التي اتسمت بالغموض والتعقيد، وخاصة التي استعمل فيها الكثير من غريب الألفاظ حيث يعمد إلى التصنع والتلفيق، فيأتي بالمعاني والأخيلة من بعيد، ويستر عن ذلك بما تعود من ضخامة التعبير، ونمثل لذلك بقوله:

أصاخت فقالت وقع أجرء شيظم — وشامت فقالت لمع أبيض مخدم[64]

والمتأمل لهذين البيتين، يقف عند هذه الخصيصة الشعرية التي وسم بها الشاعر قصائده، فقد أكثر من الغريب في الألفاظ، إلا انه استطاع أن يخلق من ذلك الصخب والقعقعة لونا جديدا من التعبير ومذهبا متميزا في الأداء، فكما يحب البعض التعبير المهموس والأداء الهادئ، يوثر البعض الآخر الموسيقى الرنانة والأنغام العالية[65].

3.4. الحدة الشعرية:

لا تحتاج هذه الميزة أدنى دليل بعد أن يقف المرء عند إبداع الشاعر ويتأمل فيه، وهذه الحدة الشعرية تبدو في معانيه وصوره، وفي ألفاظه وتعابيره، بل وفي أوزانه وقوافيه.

فنجد ابن هانئ من حيث الأفكار، يتعمقها ويبالغ فيها أحيانا، دون أن يكترث بمدى موافقتها لمنطق العقل أم لا، وأن يقبلها الدين أو ينكرها، ونلمس ذلك في قوله:

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء[66]

وما من شك في أن الشاعر في هذا البيت، قد أسرف وبالغ إلى حد لا يقبله المنطق الديني. لكن هذه الحدة الشعرية التي يتميز بها شعره، تكون مقبولة في بعض الأحيان رغم تعمقها وشدة المبالغة والغلو فيها، فتضفي بذلك نكهة أدبية على نظمه، فمن ذلك قوله في وصف السيف:

لي صارم وهو شيعي كامله يكاد يسبق كراتي إلى البطل

إن المعز معز الدين سلطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل[67]

وقد علق أحمد هيكل عن ذلك قائلا: وهذه حدة مقبولة بل جميلة لأن الشاعر خفف منها في البيت الأول بقولة يكاد ثم بتلك الصورة الفنية التي تخيل السيف يسابق صاحبه إلى عدوه، كما خفف منها في البيت الثاني، بأن الآجال غير معروفة، فكون السيف لا يرتقب مدة الأجل ليقضي على العدو، شيء مقبول جميل[68].

4.4. الواقعية التعبيرية:

تعد من أبرز الخصائص التي اتصف بها شعر ابن هانئ وتفرد بها عن غيره. نجد الواقعية في التعبير عن حالته، وهذا هو السر في طرافة شعره وتميز شخصيته، فقد أتت فلسفته موصولة بتجارب الواقعية كما هو الحال في هذه القطعة الفنية الرائعة:

وموقف الفتيات الناسكات ضحى تعثرن في حبرات الفتية الصيد

ذوات نبل ضعاف وهي قاتلة وقد يصيب كميا وهي رعديد

قد كانت مناصها أيام أذعرها غيد السوالف في أيام الغيد

إذ لا تبيت ضباء الوحش نافرة ولا تراع مهاة الرمل بالسيد

لا مثل وجدي بريعات الشباب وقد رأيت أملود غصني غير أملود

والشيب يضرب في فودي بارقه والدهر يقدح في شملي بتبديدي

وراني لون رأسي أنه اختلفت فيه الغمائم من بيض ومن سود[69]

فالشاعر في هذه القطعة الشعرية واقعي، يكره طمس الحقائق الواقعية، حتى ولو كان الطمس لغرض أدبي، حيث نجد الشاعر ينظر إلى حاله بعد أن تقدم به السن نظرة مأساوية مفعمة بالمرارة والتحسر على عهد مضى، فأخذ يعدد نواحي الضعف والتهدم والشيخوخة والعجز أمام الفتيات الحسان، من الوجه المربد والشعر المبيض، وظهره المقوس، ليجعل القارئ يعتبر من حاله عند التأمل في هذه الأبيات.

4.5. روح السخرية والتهكم في شعره:

لقد عني الشاعر بالنقد الاجتماعي الذي ينبئ عن عمق وعيه وقوة إدراكه بعيوب الناس، وطباعهم، وقد وصل به هذا إلى التهكم والسخرية منهم أحيانا كما ورد ذلك عنده في وصف رجل أكول حيث يقول فيه:

يا ليت شعري إذا أومأ إلى فمه أحلقه لهوات أم ميادين

كأنها وخبيث الزاد يضرمها	جهنم قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسنته	كأنما كل فك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيه مختزن	مما أعدته للرسل الفراعين
كأنما الحمل المشوي في يده	ذو النون في الماء لما عضه النون
كأن في كفه أيتام أرملة	أو باكيات عليهن التبابين[70]

والشاعر في هذه الأبيات يرسم صورة كاريكاتورية جد مضحكة، يوظف فيها تصويرا جميلا، ينم عن روح الدعابة والسخرية التي يتمتع بها الشاعر، ومعلوم انه كان مقبلا على الملاهي والملذات.

خلاصة:

إن حقيقة تشابه شعر المتنبي وشعر ابن هانئ من حيث موضوعاتهما وسماتهما الشعرية، لا يمكن لأي دارس للإنتاج الأدبي لهذين الشاعرين أن ينكرها وقد حاولنا في الفصل الثاني والثالث من هذا البحث إبراز مكامن هذا التشابه. لكن الأمر الذي لا يمكن التسليم به، هو أن نعتبر شعر أحدهما – خصوصا شعر ابن هانئ – تقليدا بحثا لشعر الآخر؛ فقد تظافرت عدة أسباب ومؤثرات جعلت أشعارها تتشابه، تمثلت أساسا في أن كليهما عاشا مدة قصيرة بسبب تعرضهما للقتل، كما أنهما كانا في حياتهما من شعراء البلاط فكثرت أشعارهما في مدح الخلفاء والولاة، وغالا في مدحهما إلى حد الإفراط، وكونهما يعتقدان العقيدة الشيعية، وينتميان إلى الطائفة نفسها (طائفة الإسمعليين) جعل أشعارهما تجئ متشابهة في الدفاع عن وجهتهما المذهبية، ولا داعي للإشارة إلى كل الأسباب التي ساهمت في تشابه شعريهما؛ إذ كنا قد أشرنا إلى غالبيتها فيما تقدم من هذا البحث؛ إلا أننا وبالرغم من هذا التشابه نجد لكل منهما نهجه الخاص الذي تؤهله إياه موهبته وثقافته، فينفرد عن غيره بمزايا وسمات – صياغة وأداة وغرضا – تجعل لشعره خصائص متميزة واضحة وقصارى الحديث، أن ابن هانئ أجاد في شعره، غرضا وصياغة وأداءَ ولم يكن مجرد مقلد للصوت المشرقي ومرددا له. وتكفي شهادة الفتح بن خاقان حين قال في حقه:"له نظم تتمنى الثريا أن تتوج به، وبدائع بتحبير فيها ويحاور ويخال لرقتها أنها أسحار، اعتمد فيها التهذيب والتحرير واتبع في أغراضه الفرزدق وجرير، وتشبيهاته خرق فيها المعتاد"[71].

الهوامش:

[1] – ع. الرحمان البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ط1، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، 1986، ج1، ص 3-4.

[2] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ الأندلسي المغربي ط 1352هـ، المقدمة، ص:19-20-21-22.

[3] – علي محمد سلامة: الأدب العربي في الأندلس: تطور موضوعاته وأشهر أعلامه ط 1، الدار العربية للموسوعات، 1989. ص: 282.

[4] – حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، ط 12. منشورات المكتبة البوليسية بيروت، لبنان.1978 ص.612.

[5] – الواحدي: شرح ديوان المتنبي، تحقيق عمر فاروق الطباع، ص 622.

[6] – ع. الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي. دار الكتاب العربي بيروت. لبنان ج.4 ص271.

[7] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، ص 362.

[8] – حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، ص 613.

[9] – ع الرحمان البرقوقي: شرح ديوان المتنبي ج3، ص 89.

[10] – نفسه، ج3، ص 89.

[11] – ع الرحمان البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ج3، ص311.

[12] – نفسه، ج3، ص 361.

[13] – شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط7 مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف بمصر، ص 324.

[14] – نفسه، ص 323.

[15] – نفسه، ص 323.

[16] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ الأندلسي المغربي: ط 1352هـ. ص 361.

[17] – شمس الدين بن خلكان: وفيات الاعيان، ص 424.

[18] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، ص 58.

[19] – نفسه: ص 342.

[20] – أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. ط12. دار المعارف، 1998، ص 237.

[21] – عبد الرحمان البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ج4، ص 434.

[22] – عبد الرحمان البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ج1 ص:330.

[23]– نفسه، ج1، ص 330.

[24] – نفسه، ج4، ص 190.

[25] – حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي ط 12، المكتبة البوليسية، بيروت، لبنان،1987، ص 622.

[26] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، ص 422-423.

[27] – نفسه، ص 783.

[28] – عبد الرحمان البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ج4، ص 227.

[29] – نفسه، ج3، ص 249.

[30] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، ص 311.

[31] – نفسه، ص 245.

[32] – ع. الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ج3، ص 48.

[33] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، ص 144.

[34] – نفسه، ص 265.

[35] – ع الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي ج2، ص 46-47.

[36] – نفسه، ج4، ص 83-84.

[37] – نفسه، ج 2، ص 14.

[38] – حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، ص 623.

[39] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، ص 515.

[40] – نفسه، ص 522.

[41] – نفسه، ص 383.

[42] – بلاشير: أبو الطيب المتنبي: دراسة في التاريخ الأدبي، ص 47.

[43] –عبد الرحيم بن عبد الرحمان بن احمد العباسي: شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص، ج1، ص14.

[44] – أبو الهلال العسكري: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق مفيد قميحة، ط 2، ص: 364.

[45] – عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج2، ص:227.

[46] – نفسه، ج1، ص 349-350.

[47] – ابو البقاء العكبري: التبيان، ج1: ص: 228.نقلا عن شوقي ضيف: الفن ومذاهبه، ص327.

[48] – عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج1، 142.

[49] –عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج2، ص 56.

[50] – شوقي ضيف:الفن و مذاهبه، ص 332.

[51] – عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج4، ص 234.

[52] – حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، ص627.

[53] – عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج1، 336-337.

[54] – عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج1، ص190.

[55] – نفسه، ج3، ص 266.

[56] – عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج2، ص 92-93.

[57] – عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج2، ص 44-45-46-47.

[58] – نفسه، ج4، ص235.

[59] – نفسه، ج2، ص45-46.

[60] – شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص 420.

[61] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ،ص 595.

[62] – نفسه: ص782.

[63] – أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص 240.

[64] – زاهد علي: تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، ص 657.

[65] – أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقط الخلافة، ص

[66] – نفسه، ص 15.

[67] – زاهد علي: تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، ص 647.

[68] – أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 236.

[69] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ ص 207-208.

[70] – زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، ص 707.

[71] – الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ط 1، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، 1302 هـ، ص 73.